الفصل الثامن عشر

الغـــروب

لعل غروب الشمس هو أكثر اللحظات خلال اليوم التي تحرك المشاعر بعمق في تلك البلاد التي لا زالت وثيقة الصلة بالطبيعة، إنها اللحظة التي تفصل بين اليوم والغد، حيث يلاحظ فيها الإنسان الضوء موليًا والظلام مقبلاً، وما بينهما من ضوء الشفق القصير. إنها اللحظة التي يتجه فيها المسلمون في الجزيرة العربية وبلاد الإسلام الأخرى نحو مكة المكرمة شاكرين الله على ما أولاهم من نعم وخير في اليوم المنصرم، وموجهين لعزته وجلاله الدعاء ليبارك سعيهم وجهودهم في اليوم المقبل. وهي لحظة ما بعد مغيب الشمس التي يوجه فيها الملايين أعينهم لرؤية الهلال التي تحدد بداية أو نهاية شهر الصوم أو بداية شهر الحج؛ إنها اللحظة التي يقوم فيها حتى أبناء الغرب المقيمين في الشرق بالتأمل في زحف الشمس إلى ما وراء الأفق في حين أن ضوءها لا يزال يشع في بلادهم. ولكن في مدن أوربا الحديثة والعالم الجديد لا توجد مثل تلك اللحظة في حياة الناس، فالشمس تغرب خافية عن العيون خلف الدخان الكثيف أو محتجبة وراء ازدحام المساكن. وحقًا فقد امتدت هناك اللحظة الفاصلة بين يوم وآخر إلى ساعة منتصف الليل عندما يكون الناس نيامًا ـ إلا المجرمين وأهل اللهو والعبث، ولكنهم غافلون عن مولد يوم جديد حتى تشرق عليهم الشمس ذاتها منادية لهم بالنهوض للعمل والسعي والكد.

وعلى عكس الأيام ذات التوقيت الشمسي المحددة، فإن أيام الإنسان على كوكب الأرض قد تطول أو تقصر وفقًا لظروف الحياة. فقد يكون من المتوقع أن يعيش الإنسان لسبعين سنة ولكن غالبًا ما تقل هذه السنوات عن ذلك أو تتجاوزها في أحيان لآلاف الأسباب الناشئة عن الوهن أو القدرة الجسمانية الموروثتين من الآباء أو المكتسبة.

إن كل دورة في سباق الحياة تتطلب ضحاياها قبل أن يبلغوا إلى نقطة النهاية، في حين أن البعض القليل منهم يمر بتلك النقطة بقوة كافية تمكنهم من الاستمرار لدورة أخرى أو دورتين؛ ولكن القليل من بين هؤلاء من يحتفظ خلال هذه الدورات بحماسه ولياقته الجسمانية حتى يسلم الشعلة مضيئة غير خابيه لأولئك المنتظرين ليستأنفوا مسيرتهم في هذا الصراع الأبدي بين الإنسان ومثله العليا. وقليل جداً من بين أولئك المتطلعين للشهرة من يملك القدرة على التفوق على الخطى والمعايير التي وضعها الأوائل، وقد كان ابن سعود مولعًا بترديد:

ليس الفتى من يقول كان أبي

إن الفتى من يقول ها أنذا

ومن حسن الطالع أن جزيرة العرب لم تواجه بعد بمشكلة المستقبل، ومع مرور السنوات الطويلة فإن ابن سعود كان لا يزال يمارس سلطاته بروح معنوية عالية ربما لا تكون بنفس جسارة السنوات الطويلة التي خلت، بسبب الإجهاد الجسماني والفعلي خلال رحلة الحياة. ولكن لم تلن له قناة فهو لا

يزال يتمتع بالقدرة والتصميم لمتابعة الرسالة التي أقسم على أدائها قبل خمسين عامًا. إن أمثال هؤلاء الرجال يمارسون أعمالهم إلى آخر لحظة في حياتهم ولكنهم يرنون إلى المستقبل أيضًا ولا يغفلون حاجاته. هذا المستقبل الذي أعد له عدته منذ سبع عشرة سنة، إذ قام ابن سعود بترشيح أكبر أبنائه الأحياء كوريث للعرش وأمنها له ببيعة عامة من أسرته وشعبه. ومنذ تلك اللحظة أخذ ولي العهد، الذي يبلغ التاسعة والأربعين من عمره، يشارك الملك نفسه اشتراكًا فعليًا في حكم البلاد. أما ابنه الثاني من حيث الترتيب العمري فهو الأمير فيصل والبالغ من العمر السادسة والأربعين، فقد ظل في خدمة والده كنائب على الحجاز ووزيراً للخارجية. أما الأبناء الآخرون كالأمير منصور[1]، الذي تولى وزارة الدفاع والأمير سلطان الذي خلف أخاه ناصراً كحاكم للرياض في عام ١٩٤٧م فقد أتيحت لهم تجارب قيمة في الشؤون العامة وبعض نواحي الحكم. بالإضافة إلى ذلك فإن الكثيرين من أبناء الملك سافروا كثيراً إلى خارج بلادهم ونقلوا من أمريكا وأوروبا صوراً وأفكاراً مفيدة لبلادهم مكنتها من أن تخطو خطوات حثيثة لاتخاذ مكانتها بين الأمم الحديثة، كما أضفوا على مجالسهم ومجتمعاتهم عناصر القيم الدينية والفروسية، كما كان يحدث قبل قرون خلت، وغمرها النسيان بين ماديات الحضارة الغربية. لم ييئس هؤلاء الفتية في كل نشاطاتهم واجبهم تجاه البلد الذي ترعرعوا فيه بالإضافة إلى العقيدة التي اعتنقوها في صفاء، وكانوا أميز من يمثلون شعبهم واسمهم ممتد، إذ إن للملك ستة وثلاثون ابناً والكثير من الأحفاد أو أبناء الإخوان العديدين وأحفادهم الذين يشكل عددهم بالإضافة

(١) توفي في سنة ١٩٥١م.

إلى أخوات الملك الأحياء عائلة مالكة ضخمة، مما يؤكد ويؤمن استمرار أسرة آل سعود لقرون عدة. ولعل إحدى السمات المرضية لهذه الأسرة أن جميع أفرادها قد نشؤوا في كنف ورعاية الملك نفسه وتحت إشرافه كعصبة قوية من الأخوة: متحدين إزاء الصالح العام، ويأخذون أسبقيتهم حسب أعمارهم بغض النظر عن أصولهم ووضعية أمهاتهم الاجتماعية. وليس آخر ما يسجل للملك من جليل الأعمال أنه أخرج من هذه الفئة المتباينة الميول والعلاقات عجينة واحدة سماتها الإلفة والوحدة، بحيث فشلتُ، رغم دراسة طويلة عميقة لمواقفهم المتبادلة إزاء بعضهم بعضًا، في أن أكشف عن أثر لعوامل العداء والنزاع كالتي حطمت الأسرة في حكم أعمام الملك، والتي أدت إلى انهيار أسرة آل رشيد المنافسة في شمال الجزيرة.

ولعل نجاح ابن سعود الملحوظ في المجال الداخلي له ما يماثله إن لم يكن يفوقه – في مجال الإدارة القبلية – فالبدو الذين اتسموا بالعناد نتيجة العوامل الصحراوية التي أثرت في أجدادهم وأسلافهم منذ زمن بعيد لم يتأخروا طويلاً في اعترافهم بالفتى الذي استولى على الحكم في الرياض عند مشرق هذا القرن. فسرعان ما خضعوا لآلية قضت على استقلالهم، استُخدمت في البداية بمهارة فائقة وبمساعدتهم للقضاء على كل منافس قد يزعم أن ولاء البادية له في أي صراعات مستقبلية حول السلطة في شبه الجزيرة العربية. وقد أصبحت كل تلك القبائل اليوم مجتمعات رعوية ترضخ للقانون في رخاء نسبي بين أحوال اليسر والرخاء العام في حياة الصحراء، أو مستقرة في مجموعات زراعية صغيرة تفلح الأرض التي طالما دمرتها في السابق نتيجة لممارسة النهب والسلب.

ولا ريب أن هناك العديد من العوامل التي تضافرت خلال السنوات الأخيرة لبعث الاستقرار في هذا التطور الفريد من تاريخ الصحراء، ولكن مما لاشك فيه هو أن شخصية ابن سعود وجهوده في ظروف اليأس وانقطاع الرجاء خلال السنوات الأولى من حكمه هي التي يسرت وضع الأسس لنظام لم يكن نتاجًا لمجرد تحسن الأوضاع الاقتصادية في البلاد. وبديهي أن يكون هناك مجال للتساؤل عما إذا كان هذا التقدم الاقتصادي ذاته قد أدى، إلى حد ما، إلى خلخلة الترابط الاجتماعي الذي أعد لمواجهة قوى الجذب في أوضاع مختلفة، ولكنه اضطر الآن لموائمة قوة قاهرة أكثر ضرراً. وعلى كل حال فإن خطط ابن سعود قد تشكلت قبل هبوب العواصف الجديدة حولها، وأما ما يتعلق بالصحراء وبيئتها الطبيعية فمن الممكن القول باطمئنان بأنها قد وقفت في وجه كل الاختبارات التي تعرضت لها بسبب الظروف المتغيرة والمستمرة في التغيير في الجزيرة العربية.

وفي الحقيقة فإن المرء قد يكتشف بعض نقاط الضعف في البنية الفوقية أكثر منه في الأساس لا بسبب الخطة الأصلية لابن سعود ولكن نتيجة التنفيذ المتعجل للمنفذين ذوي الكفاءات المتفاوتة والمتدنية بصورة عامة. واليوم نجد في أداء الحكومة وليس المحكومين أخطاء عرضة للنقد المشروع، والكل يذكر أن الملك قد استطاع تدريب مواطنيه بنفسه واستخدمهم في الاستمرار بقضيته التي أصبحت قضيتهم كذلك، بالإضافة إلى النجاح السريع في توحيد القوى القبلية مما نتج عنه توسع مفاجئ في مجالات مصالح المواطنين ومسؤولياتهم الأمر الذي جعل منظماتهم الصحراوية غير قادرة على مواكبة

هذا الحجم من المسؤوليات دون مساعدة من الخارج. وقد أتت تلك المساعدة بحجم كبير ومتزايد من الأقطار العربية المتاخمة والأخرى الإسلامية؛ لأن الملك ومنذ البداية كان ضد استخدام الأجانب من غير المسلمين، ولكن ذلك السيل من المرشحين للعمل قد قبل في تلك الظروف وارتجل تنظيمهم في كوادر إدارية بطريقة عشوائية في الوقت الذي استغرق فيه التخلص من الضعفاء ومن غير ذوي الهمة والعزم وقتًا كبيراً، وحتى ذلك لم يتم قبل إحداث ضرر لمصالح البلد وسمعة الدولة الوهابية.

ورغم ذلك كان من بين هؤلاء عدد كبير من الأكفاء حقًا، كان من الممكن تشكيل حكومة ذات كفاءة منهم للإشراف على إدارة الأجهزة الإدارية المختلفة للدولة. ومن الملاحظ أن وزراء وكبار موظفي الدولة اليوم ظلوا في مواقعهم منذ خمسة وعشرين عامًا يتمتعون بثقة وصداقة الملك الشخصية، ولكنهم لم يمارسوا أي نوع من المسؤولية التنفيذية. فقد كان أوتقراطيًا بطبعه ومدركًا لمسؤوليته الشخصية في توجيه رعاياه، الأمر الذي لم يمكنه من تفويض صلاحياته حتى في أصغر الأمور. فوصول ضيف أو تعطل سيارة أو توعك طفيف لأحد أفراد العائلة وحوادث أخرى صغيرة كل ذلك يحظى باهتمامه الشخصي جنبًا إلى جنب مع مشاكل الدولة ذات الأهمية القصوى. وأعتقد أن هذه القدرة غير العادية للانشغال بالتفاصيل تعزى إلى أن ابن سعود دائم التفكير، وهي سمة لعقل من الطراز الأول ميزته عن مواطنيه والذين أصبحوا وبفضل الإمكانات التعليمية المتزايدة والمتاحة لهم قانعين باتباع قادتهم. أما ابن سعود المفكر فقد كان لديه دائمًا مزيد من الوقت

للتفكير والتأمل. ففي لقاءاته العامة والخاصة كان هو المتحدث الوحيد، في حين أن جلساءه يستمعون لحكمته في صمت ويبدون موافقتهم في كلمات بسيطة في حالة أن يطلب منهم الإدلاء بملاحظاتهم. وفي مثل هذه الحالات فإن فترات سكوته عن الكلام تستمر دون مقاطعة، وإذا لم تأخذه سنة من الكرى كما كان يحلو له خلال السنوات الأخيرة فإن الأفكار تجول في عقله لينطلق في مواصلة الحديث. وبجانب ما يختاره له إمام القصر من فقرات خاصة بالتفسير والتاريخ لقراءاته المسائية وقراءاته في الآونة الأخيرة للأخبار اليومية التي تلتقط له من الأثير فإن قراءاته الأخرى تتمثل في الدعاء والأقوال المأثورة والمواعظ الدينية وذلك خلال الساعات قبل نومه ليلاً ليقوم بعدها بأداء صلاة الفجر يعقبها بالتفكر والتأمل، ثم ينام مرة أخرى لفترة قصيرة. ومن الجدير بالاهتمام أنه وفي العام الذي احتفل فيه بتوليه العرش برز ربما لأول مرة في حياته كمؤلف (للوِرْد أو عقد الورد) وهو مؤلف يضم تأملات دينية وآيات من القرآن الكريم تتبعها مجموعة من الأدعية التي كان يفضلها[1]. وقد تم نشر الكتاب من قبل المطبعة الحكومية في مكة. ورغم أن المؤلف لا يدعي الابتكار فإنه يزود القارئ بنظرة هامة إلى المبادئ الأساسية التي كانت تحكم أعماله تجاه ربه وبلده ورعيته.

(١) يشير المؤلف إلى الكتاب الذي ينسب إلى الملك عبدالعزيز جمعه تحت عنوان: الوِرْد المصفّى المختار من كلام الله تعالى وكلام سيّد الأبرار. وطبع أول مرة عام ١٣٦٩هـ في مطبعة السنة المحمدية في القاهرة، تحت إشراف محمد حامد الفقي، ثم توالت طبعاته وفي آماكن متعددة.

ومن حسن حظ الملك عبدالعزيز أنه في الوقت الذي واجه فيه أصعب اختبار لقدراته وجد شريكًا قادراً على إجادة الأداء وفي ذات الوقت محتفظًا بروحه المرحة أمام أصعب المواقف. فالشخص الوحيد المستثنى من القاعدة العامة وهي نقص الكفاءة الإدارية والتنفيذية بين جميع كبار موظفي الحكم الوهابي خلال ربع القرن الماضي والذي أشرنا إليه سابقًا كان هو عبدالله بن سليمان الذي أصبح شخصية هامة عندما تولى حقيبة وزارة المالية قبل إحدى وعشرين سنة كخلف للشريف شرف رضا. وقد احتفظ عبدالله بن سليمان بهذا المنصب منذ ذلك التاريخ. ولما كان الشيخ عبدالله نجدي الأصل فقد كان أكثر تعاطفًا من زملائه الأجانب في الدولة مع النظام الأبوي والذي قدم للبلاد خدمات جليلة خلال أوقات الضيق والسنوات العجاف، كما كان متعاطفًا مع سياسة الفرض التدريجي للضوابط التي أملاها النمو النسبي السريع في دخل البلاد نتيجة لضم الحجاز؛ لكن الإنفاق ظل مستمراً بخطى التوسع نفسها في الدخل. وفي معظم الأحيان تجاوز الانفاق الدخل بمعدل كان من الصعب الاحتفاظ به. وكان وزير المالية غالبًا ما يجد نفسه في موقف لا يحسد عليه حيث كان مطالبًا بتوفير الخبز والسمك دون توفر الموارد لذلك، وفي هذه الظروف كان عليه أن يلجأ إلى أكثر من حيلة؛ ولكن هذه الحيل أدت إلى تعرض الحكومة إلى النقد الشديد الصريح. إن تأخير دفع رواتب من هم في أسفل السلم الإداري فتح الباب أمام الفساد والذي بدأ يزداد حجمه مع بقاء السبب، وبفشله في تسديد قيمة البضائع للتجار في التاريخ المحدد فقد قلل من اقتراض الحكومة. وبالتقصير في الإيفاء بالتزاماته

التعاقدية الكبيرة قفل الباب أمام العقود الجديدة، وفي الوقت نفسه فشل عبدالله سليمان في ضبط تبذير الحاشية والإدارات الحكومية الأخرى بما فيها إدارته. وعندما اضطرته الظروف لإيقاف سداد كافة المديونية الحكومية عام ١٩٣٣م كانت فرص بقاء أمانة الإدارة الوهابية وكفاءتها قد أصبحت محل تساؤل. ففي منتصف الثلاثينيات كانت سمعة تلك الإدارة متدنية جداً في نظر العالم. وكان أمل النجاة الوحيد يكمن في إمكانية اكتشاف النفط والذهب بموجب امتيازات التنقيب التي منحتها الحكومة عام ١٩٣٣م. وقد قوبل امتياز التنقيب عن النفط بارتياح وترحيب كبيرين، وحصلت الحكومة على مبلغ خمسين ألف (٥٠,٠٠٠) جنيهًا إسترلينيًا مقدمًا خصمًا على حساب حصتها في المستقبل إن أمكن الكشف عن موارد الزيت.

وبالفعل وكما سبقت الإشارة، فإن النفط بكميات تجارية قد اكتشف في منطقة الإحساء في حين تم اكتشاف منجم للذهب صالح للاستغلال في مهد الذهب الذي يقع في منتصف الطريق بين مكة والمدينة. وبدأ إنتاج النفط عام ١٩٣٨م؛ وباندلاع الحرب العالمية الثانية وصل معدل الإنتاج إلى ٣٠,٠٠٠ برميل يوميًا. وقد استقر على ذلك المعدل خلال تلك الفترة حسب سياسة الحلفاء. وكان ذلك ضربة حادة لآمال المملكة والتي أصيب اقتصادها بضعف أكثر في عام ١٩٤٠م عندما دخلت إيطاليا الحرب، الأمر الذي أدى إلى توقف الحجاج القادمين من ما وراء البحار. وبدا الموقف يتسم باليأس على الرغم من رغبة شركة النفط في تمويل المتطلبات العاجلة في المملكة خصمًا على حقوق الامتياز المستقبلية. ثم تقدمت الحكومتان البريطانية والأمريكية بمساعدة

سخية، وكان رد فعل المملكة هو المزيد من الترف وسوء الإدارة بالإضافة إلى ازدياد الفساد في أوساط الجهات النافذة.

وقد أدى استئناف إنتاج النفط عام ١٩٤٤م إلى تحول في المد لصالح المملكة إذ أصبحت واعدة بأن تكون من بين أكبر أقطار العالم إنتاجًا للنفط. وقد قفزت حقوق الامتياز حتى وصلت في يوليو ١٩٥٠م إلى ٢٥ مليون جنيهًا إسترلينيًا في العام، لكن أزمة مالية حادة كانت قد حدثت في شهر ديسمبر السابق لذلك التاريخ؛ مما أدى إلى إيقاف تسديد مديونية الحكومة وتأجيل بعض مشروعات التنمية المهمة والتي كانت تحت الدراسة بغض النظر عن قدرة الحكومة على تنفيذها كلها في ذلك الوقت. وفي الحقيقة كانت هناك لحظة توقفت فيها الإيرادات. وكاد وزير المالية أن يفقد منصبه عندما أبلغ الملك بأنه ليس في استطاعته توفير ذلك المبلغ، وقد أعفي نائبه من منصبه. وكان النفط هو عامل النجاة، وأصبحت أنصبة الحكومة منه تأتي بمعدل خيالي كان لاشك يكفي ليؤمن للدولة الاستقرار الاقتصادي بعد سداد المبالغ التي استلمت مقدمًا. على أن ذلك كان يتطلب قيام الملك وحكومته بعدم الإسراف في الإنفاق، وهذه هي المسألة المهمة ولكن كانت الاستجابة لها بالإيجاب محدودة.

ودار حديث كثير في بعض الأحايين حول خفض الإنفاق والاقتصاد؛ ولكن كان هناك ميل ضئيل لممارسة هذه الإيجابيات، وكانت التجربة الوحيدة التي مورست في عام ١٩٤٧م هو سير الحكومة على هدى ميزانية مكتوبة؛ ولكنها باءت بفشل ذريع بحيث لم تبذل محاولة أخرى تدعو الناس

إلى الثقة بالحكومة[1]. ولعل من الإنصاف القول: إن وزير المالية قد اتخذ خطوة جرئية للحد من أوجه الإنفاق في تلك الميزانية مثل: نفقات الدولة للضيافة وإدارة الشؤون الدينية والأعمال الخيرية من قبل الدولة وغيرها. ولكن الملك لم يكن يرضى بذلك من منطلق أن الكرم العربي من الموروثات القيمة، وأن رجال الدين قدموا للدولة ما يفوق ما قدمته الإدارات الأخرى مجتمعة في مجال البعث الروحي.

وهكذا كان باب التعليم هو الذي تحمل في النهاية العبء الأكبر في موازنة الميزانية، في حين أن بعض الإدارات قد خفضت اعتماداتها الاحتياطية بقدر ضئيل. وعلى كل، فلم يكن الأمر بذي شأن طالما أن الميزانية كانت تحت تصرف وزارة المالية باستثناء مخصصات الأسرة المالكة: وتلك التي كانت تذهب لها عند طلبها، وكانت وزارة المالية هي الجهة التي تحجز الاعتمادات عن أي إدارة، كما كانت تلجأ عادة إلى عدم دفع مستحقات الموظفين في الدرجات الدنيا لفترات تتراوح ما بين ثمانية أشهر (في أسوأ الظروف) إلى أربعة أشهر (في أحسن الظروف).

هذا العرض الوجيز للوسائل الارتجالية المضطربة للإدارة المالية ظل مستمراً خلال العشرين سنة الماضية، وهو أمر ضروري لتوضيح فوارق جوهرية بين نظرة العرب تجاه هذه المسائل والنظم المالية التي تمارسها البلدان الغربية نتيجة

(١) أعلنت عن تقديرات الميزانية سنة ١٩٥١م بحيث تعادلت الإيرادات والمصروفات عند ٤٩ مليون جنيه إسترليني في مقابل ٢١,٥ مليون سنة ١٩٤٧م. (المؤلف).

لخبرتها الطويلة من جهة، وبين نظرة أولئك الذين تلقوا تدريبًا على النظم الغربية التي كانت تحتل بلدانهم من جهة أخرى. والمملكة هي في الأصل ذات نظام ديمقراطي، إذ إن ملكية وإدارة الدولة مسلم بها، كما الحال في الهند على سبيل المثال، حيث ورثت وطورت حكومتا المحافظين والأحرار نظام حكم اشتراكي قبل فترة طويلة من ظهور حزب العمال، ولكن كانت الحكومة خادمة ليس للناس ولكن للحاكم، كما كان تفويض السلطات تحت تصرفه.

وفي المملكة لم يكن مبدأ تفويض السلطات معمولاً به إلا في حالة وزير المالية، فقد كان ولي العهد ونائب الملك على الحجاز هما اللذان يمارسان مهام الملك في فترة غيابه، لكنهما كانا يرفعان له كل المسائل التي تتعلق بقضايا الساعة عدا الأعمال الروتينية. وبالمثل فإن جميع الوزراء والمستشارين وغيرهم من كبار الموظفين كان يختلفون بعض الشيء عن وظائف «السكرتيرية» في الحكومات الأوربية، حيث كان الأولون يتلقون توجيهات الملك فيما يتعلق ببعض القضايا وغالبًا ما يتم تفويضهم من قبله لمتابعة تنفيذ هذه التوجيهات، خاصة خارج المملكة عندما يشاركون في مؤتمرات أو محافل دولية. ففي المهام خارج المملكة كانوا يمارسون تصرفًا محدودًا رغم أنهم كانوا يزودون بكافة التفاصيل مما كان يقصر دورهم فقط في التوصية للجهات التي لها وجهات نظر تخالف آراء الرياض بطلب إعادة النظر فيها، وغالبًا ما كان يحدث ذلك في اجتماعات الجامعة العربية التي كان وزراء الدول الأعضاء فيها يمنحون الصلاحيات باستثناء ممثل المملكة الذي لم يتعد دوره مراقبة ما يدور مع صدور التعليمات له بالتصويت مع الأغلبية عندما يكون ذلك ممكنًا وفي حالة تساوي الأصوات يقف مع الكتلة المضادة للهاشميين. وقد أدى ذلك إلى فقدان المبادرة وزعامة العالم العربي والتي ربما كانت ستؤول

للمملكة بفضل اقتصادها الذي كان ينمو بسرعة وشخصية ملكها المتفردة[1]. ولا أحد ينكر أن أولئك الوزراء كانوا يعملون بجهد وكفاءة رغم القيود التي فرضتها عليهم الظروف السائدة؛ ولكن ليس من بينهم من حاول أن يرتفع فوق تلك الظروف ليهب بلاده السبق والتقدم. وإذا ما أخذنا في الحسبان أن هؤلاء الوزراء كانوا جميعًا فقراء لا يملكون سوى عقولهم وأصبحوا الآن من الأثرياء بعد سنين نعموا فيها بكرم الملك وجوده، لا يمكن عندئذ أن يكون نهجهم في أعمالهم إلا مخيبًا للآمال، ولعل من المهم أن نشير أنه وطوال تلك الفترة لم يتقدم أي من الوزراء باستقالته تعبيراً عن عدم موافقته لسياسة أو إجراء ما.

وعلى عكس ذلك فقد برز عبدالله بن سليمان من بين زملائه كرجل ذي قدرة وأصالة وعبقرية للقيادة، كما كان معتداً بوجهات نظره وقدراته لترجمتها إلى أعمال. وكان الرجل صاحب جسم نحيل وقصير ولا نعرف عمره على وجه التحقيق، ولكن نفسه تنطوي على شيء من النفحات النبوية المباركة، كما كان يتمتع بروح وذكاء البادية الفطري عندما تولى حقيبة المالية. وبدأ عمله كوزير للمالية وأخذ في اكتساب المزيد من القوة مركزًا انتباهه على المشاكل التي كانت تواجهه كأنه ملاكم في الحلبة، كما كان ذا عزيمة وتصميم غير عابئ بعبوس الحظ في دأبه لتحقيق الفوز. ففي احترام وتواضع كان يجلس دائمًا على الأرض في مجلس الملك في الوقت الذي كان

---

(١) ما ذهب إليه المؤلف هنا فيه كثير من المبالغة كعادة الغربيين في نقد الآخرين، وإلاّ فإن الأمر قد يفوق ذلك عندهم في نظمهم السياسية، وقد تعرض المؤلف لها في كثير من كتبه، ويلحظ عليه أحياناً أنه يوجد المبرر لتلك السياسية إلاّ حين يكون الأمر يغنيه شخصياً، حينها نجده ينتصر لنفسه بشكل واضح، لهذا فلا يعدو الأمر هنا أن يكون وجهة نظر المؤلف، ولا نوافقه عليها.

يجلس من دونه مرتبة على الكراسي والمقاعد. وكان دائماً يجلس في صمت محتفظاً بقوته للوقت المناسب، والذي كان بالنسبة له هو لحظة الاجتماعات الخاصة مع الملك. وجاءت تلك اللحظة عندما كان جلالته مشتغلاً بدراسة بعض المسائل من الناحية القانونية، حيث التفت فجأة وطلب المعاونة من عبدالله بن سليمان كان جالساً على مسافة قريبة كان ضعيف السمع، وأجاب عبدالله على حديث الملك كما لو كان يفيق من حلم قائلاً: "إنني لم أسمع". فرد الملك قائلاً: "إن ابن سليمان لا يستمع إلى أحد ولكن على الجميع أن يستمعوا له". تلك كانت كلمة حق جاءت في شكل عبارة مزح. صحيح أن عبدالله بن سليمان أدرك منذ البداية ما يتمتع به جلالة الملك من كفاءة عقلية متشعبه، وكرس نفسه على تنفيذ إرادتها للتعامل مع مشكلات العصر الحديث. فباستثناء تلك الأمور مثل التدرج في إصدار العملة السعودية وتداولها في كل المملكة، وإنشاء مكاتب للإيرادات في كل المحافظات لتحصيل الزكاة ومستحقات الحكومة الأخرى وتوزيعها، فقد نأى بنفسه عن الخوض في شؤون الحكم في نجد كما كان مقتنعاً باقتطاع المبالغ التي يطلبها الملك وحكام المناطق الأخرى والذين كان معظمهم من العائلة المالكة دون إلزامهم بتقديم حسابات عن وجوه صرفها. وليس هناك شك في أنه كان يرغب في تقليل هذا الصرف العشوائي، لكنه كان يدرك أن أية محاولة من هذا القبيل مصيرها الفشل في ظل الظروف السائدة، وأن محاولة كتلك ستحد من حريته في صياغة نظم للمحافظات بالشكل الذي يريده؛ ولهذه الأسباب فقد ركز اهتمامه على المجالات التي كانت في نطاق نفوذه،

ولما كان ابن سليمان يتمتع بثقة الملك لولائه وقدرته على تمويل الحجاز ومناطق النفط في الشرق وفقًا للمعايير الأوربية، ومن ثم يؤهل البلاد لتلقي القروض والدعم المالي من الغرب في أوقات الحاجة، فقد استطاع ابن سليمان أن يبسط نفوذه على كل فروع الحكومة، بل وأصبح هو المتصرف في مصير البلاد، وبالفعل ابتسم له الحظ ابتسامة عريضة، إذ استطاع أثناء سنوات الحرب العجاف أن يحصل على إعانات مالية من بريطانيا وأمريكا مما جلب له ثناء الملك والمواطنين، ومنذ ذلك الوقت بدأت عائدات التطور السريع في موارد النفط في التدفق على خزائن الحكومة.

وكانت هناك حاجة فقط للقليل من القيود والإدارة العادلة للتخلص من الحاجة إلى الأبد ورفع مستوى البلاد إلى الازدهار الدائم، لكن الثراء أدى إلى ترف لم تشهده المملكة العربية السعودية من قبل، الأمر الذي يجب أن يشاطر عبدالله بن سليمان الملك حمل تبعته ومسؤوليته، فالسفن التي أبحرت إلى مصر والهند خلال سنوات الحرب وعادت محملة بما اشترته بأموال إعانة بريطانيا من بهارات وعطور وحرير وستائر ولؤلؤ وذهب وأشياء أخرى ومواد غذائية كانت قد حُرمت منها الأمم المشاركة في الحرب نفسها، عادت بالذكرى إلى تلك الأيام البعيدة من عهد حتشبسوت والنبي سليمان عليه السلام. وقد قوبلت احتجاجات بريطانيا تجاه هذا الصرف البذخي بتحمل الملك مسؤولية ذلك، ومن ثم قفل هذا الموضوع. ففي الجزيرة العربية لا تقضي التقاليد أن يسأل صاحب الهدية المهدى إليه عما يفعل بها.

وقد ساعد النفط في أن تنغمس البلاد في الإسراف على حساب مواردها الخاصة، وقد نتج عن ذلك قيام العديد من الأمراء بالتوجه إلى العالم الجديد للمشاركة في افتتاح الهيئة الجديدة للأمم المتحدة والبحث في أمريكا عن السيارات ووسائل الاستمتاع بالحياة. وقد توالت هذه الزيارات تارة بقيادة ولي العهد، وتارة بقيادة عبدالله بن سليمان نفسه حيث كان كل منهما يحضر معه من الأشياء ما يعد تذكاراً. وجُلبت السيارات الأمريكية والكاميرات السينمائية والمكيفات والمعدات الرياضية، وبدأ الذوق يميل حتى إلى المواد الغذائية الأمريكية. وقد حدث أن تناولت وجبة الغداء في حديقة ولي العهد في الرياض والتي ضمت مواد غذائية أميريكية طازجة جلبت بالطائرات من أمريكا. وكانت بعض القصور الخاصة بالأمراء مزودة بميادين التنس وكرة اليد بالإضافة إلى حمامات السباحة وميادين كرة القدم أحياناً. وقد أصبح الصيد والسباق وركوب الخيل وسباق الهجن من الممارسات البالية في بلد اشتهر بها من قبل، فأمريكا بالتأكيد قد علمت الأثرياء كيف يعيشون في دعة ومتعة، وقد استوعب التلاميذ الدرس[1].

أصبح الطلب على ملذات الحياة مواكبًا لدخل الدولة الآخذ في التمدد. وكان على وزير المالية بذل قصارى جهده لمواجهة هذه الالتزامات، ولكن لا يجب أن تبادر للذهن بأنه يميل بطبعه إلى التقشف وخشونة العيش، فهو مقتنع بالإنفاق وكان هو نفسه ينفق في سخاء رغم أنه كان يفضل أن يتم الإنفاق تحت إدارته وليس بالطريقة التي كانت تتبع في البلاط الملكي سواء إن كان البلاط في الرياض أو مكة أو الطائف أو في الخيام في الصحراء، فالرجل

(١) ما أشار إليه المؤلف أمراً طبيعياً لبلد تدفقت عليه الخيرات بشكل سريع ومع ذلك نجد المؤلف الذي نعم بكل ما رأى أنه محرم على الآخرين بحجة المحافظة على ثروات البلاد.

المتواضع الذي كان يجلس عند أقدام الملك أثناء الاجتماعات الكبيرة كان يتحول فجأة خارج أسوار القصر إلى حاكم مطلق. فكان يتجول في البلاد وحوله حُراسه في رهط من السيارات الحديثة، أو يعقد مجلسًا على النمط الأميري في قصره في مكة أو في خيمته المزودة بمكيفات الهواء في جدة حيث لا يجد أغلبية المواطنين وسيلة للاتصال به، على عكس الملك. وكان في خدمته عدد كبير من الأشخاص المنهمكين في تأدية أعمالهم، كما كان يمنحهم دقائق معدودة من وقته لتصريف أعمالهم العاجلة، في حين أن الكثيرين يكتظون في غرف الانتظار والردهات في انتظار استدعائهم لمقابلته. وكان الرجل ذا قدرة لا تحدها حدود، ورغم ذلك لم يكن في مقدوره تحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقه بمفرده. وقد جمع حوله وأفراد أسرته ممن كانوا يعملون في إدارته عدداً كبيراً من السكرتاريين الأكفاء لمساعدته في أداء مهامه. وقد كان الكثيرون منهم من ذوي القدرات من الطراز الأول، وكانوا ينوبون عن الوزير في بعض الأحيان، وغالبًا ما كانت توكل لهم مهام التفاوض إلى الحد الذي يصبح فيه تدخل الوزير ضروريًا، وغني عن القول أن هؤلاء كبقية زملائهم من حاشية الملك كانوا أثرياء بفضل توليهم مناصب عليا.

هذان هما المصدران الأكثر أهمية في إدارة الدولة في الرياض وجدة بحيث يكاد يتوافر التوازن بين الرياض وجدة مع التحول التدريجي للسلطة التنفيذية من الرياض إلى جدة نتيجة تزايد التعقيدات الحديثة بسبب نمو الدخل والمشروعات الفنية التي أمكن تنفيذها. ومن الممكن تأريخ عملية التحول هذه بدقة، فحتى عام ١٩٣٩م كانت الرياض هي مركز جاذبية السلطة

في حين أن السلطات الواسعة التي منحت لوزير المالية كانت أساسًا تتجه للإيفاء بمطالب الديوان الملكي كأسبقية وتوزيع المتبقي على إدارات الدولة الأخرى. وفي تلك الفترة كان الملك هو رئيس الحكومة وظل يترأس كل اجتماعات مجلسه الخاص لمناقشة المسائل الهامة وإصدار القرارات، وقد تعوّد أن يغفو أو يستسلم لسنة من النعاس أثناء قراءة بعض الوثائق الطويلة الرتيبة، مثل: امتيازات النفط واتفاقيات احتكار السيارات، وعقد شركة ماركوني وغيرها.

ولكنه كان على معرفة بصورة عامة بمحتوى هذه الوثائق ويطلب إبداء الملاحظات عليها بعد الفراغ من قراءتها إن وجدت ثم يصادق عليها. وفي كل تلك الأحوال، فإن العبء الأكبر من العمل كان يقع على عاتق وزير المالية أو اللجان المختصة، وبالتالي يتم الارتباط بين الوزير والوزراء أو المسؤولين الذين يعينهم الملك. لكن المقترحات التي يقدمها هؤلاء كانت تتعرض لانتقادات المجلس الخاص في حضور الملك والذي كان قادراً على اتخاذ خط منفرد إذا رأى أن الانتقادات كانت مؤسسة، وبدأت المشكلات تواجهه تدريجيًا ولكنه ترك أمر حلها لأولئك المؤهلين دون أن تكون هناك بادرة بعدم قدرته على الإلمام بها، وبذلك ظل يمسك بزمام المبادرة.

وجاء التغيير أثناء سنوات الحرب، فابن سعود لم يخف تعاطفه مع الحلفاء، ولكنه أدار وجهه عن تورط بلده في حرب لا تعنيها في شيء. وكان حياده أصيلاً كما حدث في حالة البحارة الإيطاليين الذي أجبروا على الرسو في شواطئ المملكة والذين تم إبعادهم عن نيران الحلفاء بأخذهم إلى الطائف.

كما أنه رفض السماح للوزير الألماني في جدة والذي كان في إجازة عند اندلاع الحرب بالرجوع إلى مزوالة مهامه تجنبًا لما كان سيحدث له في الحواري الضيقة بتلك المدينة. وقام فيما بعد بالسماح للوزير الإيطالي بالإقامة في إحدى الجزر الصخرية المعدة للحجر الصحي في الميناء تحسبًا لما كان سيتعرض له من مخاطر، بالإضافة لذلك لم يسمح بأن يتحول أي جزء من بلده إلى ميدان لمعارك الدعاية، وفي ذات الوقت قام بحفظ الأوراق الدعائية والنشرات التي أرسلتها له الحكومة البريطانية في خزائن مكتبية لتستخدم فيما بعد كمسودات من قبل من كانوا يتابعون أخبار الحرب ويرصدونها في المصادر المختلفة. وفي حين أن ابن سعود كان دائم الاستعداد لاستقبال الزوار البريطانيين والأمريكيين وغيرهم في الرياض ظل يبتعد من الجميع عدا زياراته الضرورية للحجاز للابتعاد عن المشاركة في الحرب والتي يظل يتابع أخبارها عن كثب من عاصمته الصحراوية الرياض. وحين لم يعد التصرف والتريث ضاغطان لم يخف ابن سعود رضاءه عن تطور وسير الحرب، وقبل الدعوة لمقابلة الرئيس روزفلت والسيد تشرشل في مصر. وقد قدمه الأخير لزملائه واصفًا إياه "بالصديق العزيز في أوقات الشدة" في حين أن الرئيس روزفلت الذي صافحه وهو جالس على كرسي المرضى ومعتذراً عن عدم الوقوف ذكره بطريقة أداء العمل وهو جالس وهي طريقة مغرية، لا يمكن مقاومتها. إنه من الصعب أن نذكر تحديداً متى بدأ إلتهاب مفصل الركبة الذي أصيب به الملك نتيجة جرح في أحد المعارك، سبب له متاعب حقيقية؟ وبالتأكيد فإن مشيته كان يعتريها قليل من العجز، ولكنه وحتى منتصف الثلاثينيات كان يشارك

في العرضات النجدية التي تقام بمناسبة الاحتفالات. وحتى يوليو ١٩٤٠م وهو تاريخ رحيلي من المملكة العربية السعودية كانت مشيته طبيعية حيث يذهب إلى المعسكرات والصيد في الربيع ويستمتع بالتنزه خلال الصيف في الحدائق التي بدأت تنتشر في الصحراء بجوار الرياض؛ ولكن وبعد عودتي للرياض بعد خمس سنوات من انتهاء الحرب الأوروبية وجدته يستخدم مقعداً للمرضى أهداه له الرئيس الأمريكي روزفلت. وكانت المسألة مجرد وقت في أن يستسلم ابن سعود للجلوس على ذلك الكرسي كما كان يفعل منذ فترة ليست بالقصيرة. ولكن ما قوبل به من ابتهاج وثناء من قبل السيد تشرشل والرئيس الأمريكي لم يثنيانه عن حياده، ففكرة إعلانه الحرب على ألمانيا كانت غير معقولة؛ لكن المسألة قد أثيرت مرة أخرى من قبل المندوبين البريطاني والأمريكي في جدة عند مناقشة اقتراح بإنشاء الأمم المتحدة. ولكن الشرط الضروري للانضمام لهذه المنظمة قبل ٣١ مارس ١٩٤٥م كان إعلان الحرب ضد قوات المحور. ولم يكن الملك الذي سبق أن رفض الانضمام إلى عصبة الأمم قبل خمسة وعشرين عامًا نادمًا على ذلك القرار، كما لم تكن له الرغبة في الانضمام إلى المنظمة الجديدة. ولكن الدولتان الكبيرتان مارستا عليه ضغوطًا شديدة للانضام، ورغم ذلك كانت المسألة بالنسبة له مبدأ لا يمكن التخلي عنه. وقابل الملك آخر محاولة من قبل الوزير البريطاني بالرفض الودي الرقيق، إلا أن الملك أسف لذلك، وخلال دقائق قليلة استدعى المندوب البريطاني وأبلغه بأنه سيعلن الحرب على قوات المحور ليعبر عن تضامنه مع الشعوب المحبة للسلام. وفي ذات الوقت لم يخف الملك امتعاضه واشمئزازه

تجاه محاكمات نور مبيرج، ومنع ملتقط الأخبار من ذكر أي شيء عن مداولات المحاكمات في حضرته، وقد لقي "مجرم الحرب الوحيد" السيد رشيد عالي الكيلاني الذي لجأ إلى جلالته غاية الكرم وأقام في كنفه ضيفًا عزيزاً.

ويتضح مما ذكر، أن ابن سعود كان خلال هذه الحقبة من الشدائد سيداً على دولته على الرغم من أنه فضل أن يسمو بمقامه تاركًا الأمور لمساعديه. فالإيرادات كانت ضعيفة في بلد تنعدم فيه مقومات العيش، ولما كان لابد من الإيفاء بمتطلبات البلاط الملكي بأي وسيلة فقد رأى أن من الأفضل ترك المسألة إلى حذق وزير المالية وحسن تصرفه، وهكذا بدأ نجم عبدالله بن سليمان في الصعود طاغيًا على كل الجهاز التنفيذي، ولا يزال يتمتع بذلك حتى اليوم. وفي الحقيقة، تم وضع بعض الضوابط الفعالة قبل إعادة فتح بوابات النفط في عام ١٩٤٤م، والذي بدأ يتدفق منذ ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا.

لكن سنوات الحرب تركت أثرها العميق على الملك الذي كان يأمل في سريرته في اندلاع حرب جديدة والتي ربما تثري من ورائها المملكة العربية السعودية كما فعلت في سابقتها[١]. لكن الأمور سارت في البداية على غير ما كان يُراد لها. فبعد نهاية تلك الحرب أصبحت المملكة مشاركة بثقلها في هموم العالم الغربي إلى حد السماح بقيام قاعدة أمريكية في أراضيها تنشئ وتدير الميناء الجوي الحديث في الظهران. وكان ذلك بمثابة حدث في يد القدر ولازال مستمراً بشكل معدل وفعال. بالإضافة لذلك كانت هناك بعثة عسكرية أمريكية في الطائف تقوم بتدريب الشباب على العمل العسكري، وبالطبع فإن تطوير الأمريكان لحقول النفط والمهندسين الإنشائيين بدؤوا في

(١) وكيف اطلع المؤلف على سريرة الملك عبدالعزيز، ولا يطلع على السرائر إلاّ خالقها سبحانه وتعالى.

تغيير تركيبة الحياة في المملكة، فالحاجة إلى المال وبشكل عاجل طغت على كافة الاعتبارات الأخرى، والملك بعائلته الكبيرة الحجم والأعداد غير المعروفة من ضيوفه ومن كانوا تحت إعالته كان عليه أن ينهج نهجًا لا يتعارض مع التقاليد العربية التي كان يؤمن بها إيمانًا قويًا، فالسعي لتوفير المال دون الاعتبارات الأخرى لم تكن تتمشى مع بعضها البعض. وكان ابن سعود قد انغمس في نعيم الحياة بحيث يصعب عليه التخلي عن ذلك، وفي بعض الأحيان كان يبدو عليه الضيق بتلك الحياة. وعلى كل حال فعندما تركته عام ١٩٤٠م عائداً إلى بريطانيا كان مشرقًا وواثقًا، كما كان في أي وقت منذ توليه الحكم. وكان يحمل هموم الدولة بثقة في النجاح وهي سمة ظلت تلازمه في السراء والضراء على حد سواء. وبعد خمس سنوات بدا عليه الإنهاك بسبب إجهاد الحياة، فقد اشتدت عليه آلام الركبة واستسلم؛ لذلك وبدأت علامات الشيب على رأسه والتي لا يمكن أن تخفيها الأصباغ بصورة كلية. فقد بدأ يسلك مرحلة ضعف المقاومة ووهن العزيمة، في عالم أشبه بالغابة المظلمة، لم يألفه من قبل، بل سمع عنه فقط، رغم أنه قد قابل الكثير من قاطن هذا العالم، وسوف يقابل عدداً أكبر منهم في السنوات التالية منجذبين إلى مقره الصحراوي بعد أن سمعوا بالثروة الأسطورية. وكانوا يرغبون في رؤية الرجل الذي عمّر قفر الصحراء، وروض ضراوة أهلها، وجعلها مرفأً للأمن والطمأنينة في عالم يموج بالاضطراب. ولكنهم لسوء الحظ لم يظفروا برؤيته كما كان إبان فتوته وقوته، فالصوت القديم القوي قد بدأ يخفت، والعقل السريع والصافي بدأ غير واضح ومتردد في صراعه مع مشاكل

عالم غريب. وحتى الروح التي كانت تشتعل بين جوانحه أيام الثقة والاقتناع والفتوحات والغزوات بدأت تشوبها الشكوك وفقدت الحرارة التي كانت تغذي ولاءه للعقيدة والقضية التي تفرغ لها. فالمسألتان قد انتصرتا تحت توجيهه ولكن كلتاهما فقدتا الأرضية بعد أن بدأت رياح الغرب تقصف بحماسه. غير أن النار بقيت تحت السطح كامنة ولم تنطفئ بعد. ويتضح ذلك عندما يجتمع الملك مع وفد من البدو أو مع مجموعة من رجال الدين والعلماء، ففي مثل تلك الأجواء المألوفة يكسر الملك تلك القيود حيث يعود ذلك الصوت الآمر بالقرار ويعالج المشاكل منطلقًا من خبرته الطويلة، حيث يقوم بتشريح المشكلة بمهارة فائقة عندما تطرحها الأطراف المتنازعة ثم يصدر حكمه في كلمات تصيب كبد الحقيقة وملزمة لتلك الأطراف. بعدها يقوم زعماء القبائل بتقبيل جباه بعضهم البعض كدلالة على تسوية النزاع بينهم. ثم يقومون وأتباعهم بتقبيل يد الملك ويغادرون المجلس مدركين أن عليهم إطاعة الأمر، وأن ذلك الأمر هو الحكم العادل. وهكذا أيضًا حاله مع رجال الدين، فإنه يخاطبهم بنفس لغتهم، فإذا كانت المسألة تتعلق بالتراخي في أداء الصلوات أو غير هذا من علامات الانصراف عن أصول الدين فإن جلالته يضع هؤلاء الشيوخ في موقف المدافع حيث يلقنهم كيف يحافظون على إلزام الرعية بمراعاة العقيدة، ويندد في بلاغة قوية ما سبب بهذا التراخي البين الشائع بين الناس في أمور دينهم؟ ويتوسل إليهم وعيناه مغرورقتان بالدموع بأن لا يبتعدوا عن واجباتهم التي فرضها الله لينقذ عباده من مغبة الإثم. ففي كل هذه المسائل كان يتحدث بشغف شديد، فعندما كان يتحدث عن العقيدة

الدينية والتي غالبًا ما يتحدث عنها في مجالسه الخاصة والعامة كان المرء يلاحظ اقتناعه المبسط بها والذي لم تهزه غرائب وأهوال العلوم الحديثة، ورغم ذلك كان مدركًا للشكوك والحيرة والالتباس التي تسللت إلى بلده من العالم الغربي مؤخراً رغم أنه ربما كان يدرك استحالة وقف التأثيرات التي نتجت من التعليم الغربي والسفر للخارج، الذي عمل كما عمل غيره على تشجيعه في أسرته وبين رعيته. وإذا كانت العلمانية منتشرة في بلاد أخرى، فسوف يظل للعقيدة الدينية الإسلامية مكانتها المقدسة في المملكة؛ ولكن من غير المحتمل أن تظل العقيدة الدينية هي الهاجس الرئيس للعرب، كما كانت في نجد قبل عشرين عامًا، حيث كانت تعني للإنسان هناك التعويض عن بلاء الحياة ومشاقها، أما اليوم فقد انغمس الناس في مسرات الحياة الدنيا بحيث أصبحوا لا يتأملون كثيراً في الحياة الآخرة[1].

ومن البديهي أن حرارة تعصب الوهابية التي سادت سياسات الصحراء خلال العقدين الثاني والثالث من هذا القرن لن تبقى متأججة إلى الأبد. فدخول الحجاز قد قلل من وقود نيرانها؛ كما أن إخماد تمرد الإخوان في عام ١٩٢٩/ ١٩٣٠م ضد قائد الوهابية قد استأصل بريقها. وقد دمر ابن سعود العملاق (فرانكشتين) الذي صنعه بيديه خوفًا من أن يقوم ذلك العملاق بتدميره. وقد تمتع بثمار النصر لفترة عشرين عامًا، وهو النصر الذي لم يكن ليتحقق لولا مساعدة هذا الجبار. لكن رد فعل البلاد بأسرها تجاه ظاهرة الفتور الديني والعلمانية اللتين كانتا إفرازاً للتأثير الأجنبي ربما كان أكبر من المتوقع قبل أن تنشط تلك التأثيرات نفسها.

(١) ليس صحيحاً ما ذهب إليه المؤلف في هذه العبارة.

وفي محاضرة شيِّقة ألقاها د. جي هوجارث في المعهد البريطاني للشؤون الدولية في مارس عام ١٩٢٥م بعد ضمّ الطائف ومكة وقبل دخول المدينة وجدة أو ضم الحجاز، حاول المتحدث تسليط الضوء على مستقبل تلك البلاد. وتستحق بعض فقرات محاضرته أن ننقلها هنا في ضوء معرفتنا لما حدث منذ تلك الأيام. فقد كانت محاضرته عبارة عن اعتذار عن السياسة البريطانية في الشرق الأوسط إبان سنوات الحرب وخاصة فشلها في مساندة الملك حسين، مرشحها الأوحد لتولي الهيمنة على الجزيرة العربية بدلاً من الوهابيين، ولكن الذي يهمنا هنا هو تقويمه لتطور الحركة الوهابية.

يقول الدكتور هوجارث: "حسب علمنا فإن الحجاز ستسقط لفترة ما إن عاجلاً أم آجلاً" وهي عبارة لافتة للنظر بسبب القرار الجماعي للجنة لورد كيرزون في مارس ١٩١٩م القاضي بمساندة الملك حسين اقتناعاً بأنه لن يواجه صعوبة في التخلص من الخطر الوهابي. واستطرد د. هوجارث قائلاً: "الآن وقد وصلت الروح النجدية المتعصبة درجة من الثقة حتى طفح كيلها، فليس هناك من بين مقومات تلك الروح اليوم ما يستطيع الاستمرارية لفترة طويلة لأسباب لازالت نشطة. ولا أرى في التوسع الوهابي ما يكفل له الاستمرارية لفترة أطول من تلك التي طفحت بها الروح النجدية المبكرة، ففي مكة سادت تلك الروح لفترة لم تتعد العشر سنوات؛ لكن شخصية السلطان عبدالعزيز ابن سعود قد تطيل من آخر ما تبقى له من نفوذ. ولكنني أتوقع أن يكتشف أن مكة والطائف والمدينة ستعمل على إضعاف حماس وشجاعة المتعصبين من أتباعه، وأنه قد تمادى إلى ما وراء حدود حكم الفرد؛ ولذلك أتوقع أن النفوذ

الوهابي في الجزيرة العربية لن يستمر أكثر من عقد... خارج نجد، فالحقائق تؤكد وجهة نظري بأن الوهابية قد بلغت حدها الجغرافي وزادت على سلطة الفرد... فهل تضار مصالحنا إذا سيطر الوهابيون على الطائف ومكة وبقية مناطق جنوب الحجاز باستثناء جدة؟ هذا حول موقفهم الحالي".

وعلى العموم فقد كان جواب هذا التساؤل في صالح الوهابيين، ولكن الفقرات التي نقلتها فيما بين القوسين أعلاه كافية لتوضح أن تقديره لفرص الوهابيين بعيد عن التفاؤل، في حين أنه وفي فقرة أخرى قد ارتكب خطأ شنيعًا، ففي نقاش قصير لمصالح بريطانيا في المملكة ذكر: "أن المملكة العربية السعودية لا تبيع ولا تشتري بالقدر الكافي لترجيح كفة الميزان السياسي، ومع الاحترام للشركات والأفراد الذين ظلوا يبحثون عن الامتيازات هناك منذ الحرب، فلا أرى اليوم الذي سيتحقق فيه ذلك، فمنذ أن حلّ البن البرازيلي والإفريقي محل البن اليمني أصبحت صادرات شبه الجزيرة العربية ذات قيمة ضئيلة، أما الواردات فلا تستحق الاعتبار".

ولكن الحياة لم تمتد بهوجارث ليرى الخط الحديدي بتكلفة ثلاثين مليون دولاراً والذي يشق الصحراء الشرقية إلى الرياض، ولا الطرق الأسفلتيه التي تربط بين جدة ومكة والمدينة (الأخير تحت الإنشاء حاليًا) ولا الموانئين الكبيرين في جدة والدمام، ولا شبكات الكهرباء في الأربع مدن الكبيرة، ولم ير كذلك خطوط إمدادات المياه في جدة، ومشروع الخرج الزراعي، والمنشاءات العلوية فوق آبار النفط في الصحراء ومناجم الذهب التي أعيد اكتشافها والخطوط الجوية السعودية التي تعبر الجزيرة العربية في أقصر وقت، ولم ير الكثير من الأشياء التي قد تثير دهشته إذا ما عاد ليراجع مدى صحة نبوءاته.

لقد كنت شخصياً ضمن المتنبئين الذين تفوقوا على هوجارث والذي اختلف معي بشدة وقتها، ولكنني أستطيع اليوم أن أزعم بأن وجهة نظري قد تحققت، وهو ما يثبته واقع الأحداث والشكل الحالي للمملكة. وفيما يتعلق بمروري عبر واحة الخرمة المتنازع عليها بين ابن سعود والملك حسين، فقد أشرت لها[1] قبل أيام قليلة من عيد ميلاد عام ١٩١٧م بأنها "المنطقة التي قدرت لها أن تقوم بدور حيوي في صناعة التاريخ، رغم ما يبدو عليها من عدم أهمية؛ وربما تتحول مقبرة لوأد الفكرة الخيالية للوحدة العربية، فمن يدري؟ وقد تكون بمثابة السندان الذي تُشكل عليه هذه الوحدة". فالخرمة أصبحت السندان الذي تشكلت عليه الوحدة العربية كما هي اليوم، بأقصى حد سمح به الاستعمار البريطاني الذي كان ابن سعود محقًا في عدم إثارته والدخول معه في صراع. والبلد الوحيد الذي لم يكن تحت السيطرة الأوربية ولم يدخل ضمن حدود دولة ابن سعود هو اليمن والذي كان قريباً من تحقيق إحدى تنبوءاتي في حرب الثلاثة أسابيع عام ١٩٣٤م لولا اعتدال ابن سعود وخوفه من التدخل الأوروبي، فقد كتبت عام ١٩٢٩م[2] بأنه "إذا استثنينا المناطق تحت الوصاية البريطانية والفرنسية فمن الصعوبة تصور مستقبل الجزيرة العربية دون أن تكون تحت حكم الوهابيين، وأن توحدها يعتمد على نتيجة الصراع الحتمي بين ابن سعود وحاكم اليمن الذي سوف يحدث في المستقبل القريب أو بعد فترة لن تطول. وانتصار ابن سعود غير مشكوك فيه في ضوء تجارب ربع القرن الماضي. والذين يقرؤون المستقبل سوف يرون ملك الوهابيين باسطًا سلطانه على طول وعرض الجزيرة العربية، الشيء الذي لم يستطع

---

(١) قلب جزيرة العرب؛ (١ / ١٦٨) من الأصل الإنجليزي.

(٢) العربية السعودية، ص٣٦٣، من الأصل الإنجليزي.

فعله أسلافه، واضعًا على رأسه تاج مكة والرياض وصنعاء وتحيط به باقة وأكاليل من النوايا الحسنة البريطانية والأوربية.

فالنوايا الحسنة كانت في الحقيقة متوفرة تجاه الملك المسن الذي ظل يقود شعبه خلال ما تبقى من حكمه، والذي ربما لم يكن له مثيل في التاريخ العربي. فالأساطير تحكي عن ثلاثة ملوك أوائل لمملكة سبأ التي كانت تضم معظم - إن لم يكن - كل ما يعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية. وقد حكم هؤلاء الملوك لفترات (١٢٥) سنة و(١٨٠) سنة و(١٦٠) سنة على التوالي! ولكن إذا وضعنا تلك الأساطير جانبًا فإن السجل الموثوق فيه لحكم مقارن بحكم ابن سعود من حيث طول الفترة ينسب إلى ملك سبأ ورو إلا أيمن والذي يبدو أنه حكم الجزيرة العربية من عام ٣٧٨ إلى عام ٤٢٥م، وقد كان يهودي الديانة، رغم انحداره من أصل عربي. وقد وردت أسماء والده وأخيه وابن أخته الذين أصبحوا ملوكًا لسبأ في بعض النقوش التي اكتشفت مؤخراً في منطقة الدوادمي في المنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية[1].

---

(١) يحتاج الأمر هناك إلى أمور هي: أن المده الزمنية التي ذكرها المؤلف فيها مبالغة لا تتناسب مع التسلسل الزمني لملوك سبأ المعروفين، كما أن قوائم الملوك السبئيين المعروفة حتى الآن ليس فيها ما يشير إلى ورود مثل هذا الاسم: واراور عمار أيمن، ومن خلال سياق جملة المؤلف يبدو أنه يقصد أبو كرب أسعد، الذي ذكر في المصادر العربية القديمة تحت اسمين هما: أبو كرب أسعد أو أسعد الكامل، وهذا حكم من ٤١٠ إلى ٤٣٥م، أما الحاكم الثاني الذي غزا وسط الجزيرة العربية فهو معدي كرب، وترك نقشاً لا يزال قائماً في ماسل الجمح (الدوادمي)، وهو المعروف بمعدي كرب الثاني، وحكم من ٥٠٥ إلى ٥١٧م، أما قول المؤلف بأنه يهودي، فهو قول بعيد عن الصواب، إذ إن اليهودية في هذه المدة لم تدخل جزيرة العرب بعد، إضافة إلى أن قول المؤلف هنا بأنه حكم الجزيرة العربية فهذا أيضاً غير صحيح، إذ من المعروف من النقوش السبئية أن حكم الملكين السابقين لم يتعد إطار حدود جنوب الجزيرة العربية في بلاد اليمن حالياً.

ومهما يكن فالمهمة التي تواجه ابن سعود اليوم لا تتناسب مع رجل عمل بكل جهد طوال حياته؛ فالكثير من أعباء الدولة وخاصة تلك المرتبطة بالدول الأخرى قد تولاها عبدالله بن سليمان كما أشرنا لذلك والذي لم يعد شاباً، بل كان يكبر الملك سناً، ورغم أن وراثة العرش قد تم تأمينها إلا أنه لم توضع خطط للمستقبل، فالحاجة الملحة في الوقت الحاضر هو خلق جهاز حكومي ليقوم بمهام إدارة الدولة بطريقة منتظمة حازمة، تجنبها أي توقف عن الاستمرار إذ إن الحاضر ينتقل إلى المستقبل، وكما نجح الملك بمساعدة وزير ماليته في الاحتفاظ بسلطته المركزية في بلد لم يألف المؤسسات البرلمانية وينقصه الموظفون من ذوي الخبرة فإن أعباء الدولة المتزايدة بسرعة أصبحت تفوق قدرات حكم الفرد، وقد كان يأمل أولئك الذين يودون أن يروا استمرار النظام السياسي في أن لا تتأخر خطوات تشكيل مجلس للوزراء تحت رئاسة ولي العهد ليتولى كافة أعباء الملك عدا المسؤوليات السيادية ليبشر في الوقت المناسب بولوج مرحلة جديدة من تاريخ المملكة العربية السعودية. وكان من السهل تشكيل حكومة قوية من بين أولئك من ذوي القدرات الممتازة والذين أمضوا فترات طويلة في خدمة قائد عظيم، بالإضافة إلى الموظفين من ذوي الكفاءة والذين إذا ما منحوا الفرصة سيظهرون على قدراتهم في إدارة وزاراتهم بجدارة. ومن المتوقع أيضاً، أن قيام نظام جديد للحكم سيجذب بعض الكفاءات من البلدان العربية ممن لم تتح لهم الفرصة في بلدانهم، للعمل في المملكة العربية السعودية. فعلى سبيل المثال كان من بين هؤلاء سيد علي راشد جيلاني الذي ورد اسمه سابقاً، وجمال بك الحسيني والذي

يبدو أنه قد فقد الأمل في إيجاد حكومة موحدة لكل فلسطين كتلك التي قامت مؤخراً في غزة كرد فعل على تقسيم الأرض المقدسة بين الأردن واليهود.

وإذا ما قدر لهذا الجهاز مباشرة المسؤولية الجماعية في إدارة الدولة تحت سلطة الملك واستبعاد النفوذ الشخصي، فلن يكن هناك شك في أن المملكة التي أسسها ابن سعود ستكون قادرة على شق طريقها إلى العالم الحديث دون تقليد المؤسسات البرلمانية والتي أثبتت عدم جدواها في أقطار عربية كسوريا ومصر. فالشرق الذي هو أكثر ديمقراطية من الغرب بما يتمتع به من عدم تمييز على أساس العنصر واللون يستطيع أن يشكل نظام حكم خاص به يكون أكثر ملاءمة لبلاد لم تعرف شعوبها بعد المزايا المريبة «للتعليم» على نطاق واسع دون أن يمزق شملها.

كما أن من شأن هذا الجهاز أن يخفف على الملك عبئًا من المسؤوليات أكبر من أن تتحمله سنه، بالإضافة إلى تمهيد هذا الجهاز الانتقال من النظام القديم إلى آخر جديد يتولى قيادته نفر من هم أصغر سنًا من الملك؛ ولكنهم أقل مهارة وخبرة منه. فالعبقريات السياسية لا تولد في كل جيل من أجيال الأسر الحاكمة، وكانت المشكلة في أن هؤلاء الأبناء لم يكن لديهم ما يفعلونه في ظل الظروف السائدة، في حين أن ما يتلقونه من تعليم كان عبارة عن تجربتهم في الحياة، وقد يعتقد المرء أنهم كانوا سيكونون ضباطًا أكفاء في الجيش النظامي بعد تلقيهم التدريب على أيادي البعثة البريطانية العسكرية التي كانت تساعد في تنظيم تلك القوات، أو يعملون مساعدين لحكام

المحافظات المختلفة أو ربما موظفين في صفوف الخدمة المدنية، لكن الملك كان شديد الحساسية تجاه أسرته مما دفعه لربطها به ووضعها تحت نفوذه خشية أن ترتكب الأخطاء وتصبح عرضة للانتقاد. وكانت النتيجة هي أن هؤلاء الشباب ظلوا يمارسون حريتهم كما كانوا بعيدين من الأسرة. وحتى في حالة أبنائه الكبار والذين سيقع عليهم عبء القيادة في المستقبل، والذين كانوا يأخذون مهامهم بجدية وحرص ويوجهون الانتقادات إلى بعض جوانب مسار الشأن العام ويقترحون إدخال بعض الإصلاحات، كان والدهم يضع هذه الاقتراحات جانبًا واصفًا إياها بمجرد "فقاقيع" يثيرها أطفال تنقصهم التجربة. وكان وقع ذلك صعبًا على رجال بلغوا سن الأربعين واكتسب الكثير منهم خبرات عملية بالعالم الحديث الممتد ما وراء المملكة العربية السعودية فاقت خبرات والدهم الذي نأى بنفسه بعيداً عن تلك الحضارة الغربية والمختلفة عما نشأ عليه.

وخلال مرات عدة أثناء وجودي مع الملك، كنت أقترح عليه القيام بجولة خارج المملكة ليرى العالم كما هو وعلى حقيقته بدلاً من رؤيته من خلال كاريكتيرات الصحف أو في الأوراق التي كانت تتدفق على المملكة بكميات ضخمة. وخلال سنوات كثيرة خلت، كان يقول إنه ليست لديه رغبة في التعرف اللصيق بمجتمع قد يرى فيه الكثير الذي لا يقره أبداً، مما قد يتنافى مع سلوكه كضيف. وفي مناسبة أخرى كان يبدو راغبًا في النظر في فكرة زيارة بعض الأقطار التي كانت له اتصالات سياسية معها بغرض إنشاء علاقات شخصية مع حكوماتها وقادتها. ولكنه أضاف بأنه سيفعل ذلك بطريقته

الخاصة، حيث سيقوم بتأجير سفينة تحمله وحاشيته بالعدد الذي يتناسب مع مقامه في الخارج. وعند وصوله للقطر المعني سوف يستأجر أو يشتري مسكنًا يسعه وحاشيته ليعيشوا بداخله بالطريقة التي ألفوها في بلدهم، ثم يقومون بالطواف ليشاهدوا مناظر ذلك البلد ومؤسساته العسكرية والصناعية والسباق والملاهي غير المبتذلة، مع تجنب أوجه الحياة الأخرى غير اللائقة كحفلات الكوكتيل والسينما والمسارح والمراقص وأشباهها. وكنت دائمًا ألح عليه أن مثل هذه الزيارة قد تفقد معناها إن لم يكن يرغب في التعرف على حياة الناس على حقيقتها في البلد المضيف.

ومن المدهش أن مثل تلك الزيارة لم تتم من جانب الملك إلا بالوكالة. وبدأت هذه الزيارات خلال الثلاثين سنة الماضية، بدءًا بزيارة الأمير فيصل إلى إنجلترا وميادين معارك الحرب العالمية الأولى (١٩١٩م) في أوربا، ثم زيارة أبناء الملك وأبناء إخوته وأحفاده الذين قاموا بزيارة جميع الأقطار الأوربية، بما في ذلك روسيا، وعبروا المحيط الأطلسي مرات عدة إلى أمريكا الشمالية، والهند وتركيا ومصر وبلاد الشرق الأدنى، أما الملك فقد اقتصرت زياراته على إمارات الخليج العربي كالكويت والبحرين والتي لم تكن تعد زيارات خارج نطاق بلاده أو لدول أجنبية؛ وكانت أول تجربة له من هذا النوع هي زيارته إلى البصرة عام ١٩١٦م عندما حلَّ ضيفًا على قائد الجيش والسير بيرسي كوكس كما ذكرنا في فصل سابق[١].

---

(١) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

وكانت تجربته الترفيهية الأخرى مع مضيفيه البريطانيين على ظهر السفينة البريطانية «لوبن» خارج مياه المملكة العربية السعودية والعراق في الخليج الفارسي عام ١٩٣٠م عندما دعاه السير فرانسيس هامفريس، معتمد العراق، للالتقاء بالملك فيصل لمناقشة خلافاتهما وتسويتها التي كانت من إفرازاتها ثورة الإخوان. وقد تم الترتيب لذلك بدقة لإبعاد ما قد يسيء لمشاعر الملك الوهابي، لدرجة أن الملك فيصل كان يغادر المكان إلى إحدى حجرات السفينة لتدخين سيجارة. والشيء الذي أزعج ابن سعود ما تم أثناء احتفال ديني حضره الملكان كمشاهدين على ظهر سفينة حربية بريطانية. ومن المؤسف أن وقعت عين الملك الوهابي على الجنود البريطانيين يؤدون الصلاة وهم جلوس على الأنجيل دون أن يقرؤوا فيها! فالمرء لا يتوقع أن يعامل القرآن بمثل هذه الطريقة في البلاد الإسلامية. وفي مناسبة أخرى سابقة كانت زوجتي قد دعت الملك لحضور حفل شاي أقامته في جدة. وقمنا بتوفير أفخر كرسي له كضيف شرف، ولكنه وبعد أن فحص الكرسي أمر بإبعاد المساند حيث كانت من الحرير المطرز الذي يحمل اسم الله ورسوله.

ولم يقم ابن سعود بزيارة أخرى للخارج إلا عام ١٩٤٥م، وقبل ذلك التاريخ كان ابن سعود قد تعرف على نمط حياة الأوربيين والأمريكيين من خلال تدفقهم على المملكة لتشغيل مشروعاتهم المختلفة أو كزوار من بلدان بعيدة، فخلال سنوات الحرب كان الأمريكيون يسعون للتعرف عليه وإجراء اتصالات دبلوماسية مع حكومته من خلال وزير مبتعث للديوان الوهابي لأول مرة، كما قام ممثلون شخصيون للرئيس روزفلت بزيارة الرياض، وجاءت

المناسبة الكبيرة عندما دعي جلالته لمقابلة الرئيس الأمريكي ورئيس وزراء بريطانيا عندما بدأ النصر على قوات المحور في الاقتراب، فأبحر ابن سعود إلى قناة السويس وقابل الرئيس الأمريكي على ظهر الطراد «أوغستا» في البحيرات المرة المقابلة لمدينة الإسماعيلية، ومن هناك تحرك بحراً إلى الفيوم مروراً بالقاهرة دون أن يتوقف فيها، إذ كانت زيارته لمصر بغرض مقابلة السيد تشرشل وزملائه أثناء تناول الغداء على شاطئ بحيرة قارون. وكانت هذه الزيارة بغرض مقابلة زعماء الحرب ولم تتح للملك الفرصة للاستمتاع بملاهي مصر أو مشاهدة عجائبها، وكانت القاهرة هي المدينة الوحيدة العظمى التي رآها كما مر بالإهرامات في طريقه من وإلى الفيوم.

وسبق أن قام الملك فاروق بزيارة إلى الحجاز في العام الذي سبق زيارة ابن سعود إلى مصر وأمضى الملكان بعض الأيام معًا في مخيم يقع بين ينبع والمدينة تحت ظل جبل رضوى؛ ولذلك كانت فكرة رد الزيارة من قبل ابن سعود أمراً مفروغًا منه، ولكن الدبلوماسية تحول دون الجمع بين هذه الزيارة والأخرى لمقابلة الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطاني على أرض مصر. ولهذا السبب تم تأجيل زيارة الملك إلى مصر في يناير عام ١٩٤٦م، حيث تمت في عالم يسوده السلام. وقد قام اليخت المصري بإقلال الزائر الكبير وحاشيته من ميناء جدة إلى السويس، وقد كان لي الشرف أن أكون في معيته. والأسبوعان اللذان قضاهما ابن سعود في مصر كانا مناسبة لا تُنسى أبداً. فقد استقبله المصريون بالترحاب الحار، حيث كانوا يتزاحمون في الطرق التي يمر بها وغالبًا ما كانوا يحيلون دون مرور ركبه ليروا رجل الجزيرة العربية

أو يلمسون السيارة التي تقله. وكان الحماس عظيمًا بالغًا، فالنساء كن يرفعن أطفالهن له ليظفروا بابتساماته وأصطفت الفتيات ليشاهدن الملك «سليمان» الجديد. وقد بدا لي في ذلك اليوم أن الملك مر بجموع هتفت له وأخرى كانت تضحك ووجهه غير متأثر بمرآها، مما يدل على أنه فسَّر تجربة التزاحم حوله في ضوء شهرته. وكنت آمل أن يكون قد شاهد تلك المناظر في سن مبكرة لكي ينعم بها ويسعد بمتعتها. وكثيراً ما كنت أفكر أثناء مرورنا بتلك الحشود الضخمة المرحبة بابن سعود أنه لو كانت هناك قضية عادلة تستحق أن يحارب من أجلها لكان في مقدوره إثارة ملايين المصريين لتتبعه أينما اتجه. ورغم ذلك لم يخطب قط خلال زيارته أو يعقد مؤتمرات صحفية أو يبدي أي استجابة تجاه الحماس الذي قوبل به، وربما أراد ألا يجعل من زيارته أرضية للدعاية من أي نوع يسيء لأي شخص. فالسياسة المصرية وقتها كانت مثار حساسية، حيث مصطفى باشا النحاس كان لا يزال في موقف سياسي ضعيف، وحركة الأخوان المسلمين بقيادة حسن البنا آخذة في الانتشار، الأمر الذي يتطلب الحذر. وفي ذات الوقت فإن أي إشارة بالموافقة أو التشجيع على المطلب الرسمي لانسحاب القوات البريطانية وتوحيد وادي النيل تحت التاج المصري كان سيسيء لأصدقاء الملك من البريطانيين والغربيين. ولم يكن الموقف تسهل مواجهته من قبل شخص في مركزه؛ ولذلك فقد عكس الانطباع بأنه كان مثقلاً بأعباء العظمة والإحساس بالشد الناجم عن تقدم العمر، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أحسست فيها أنه قد تخطى عتبة الشيخوخة.

وتوالت الولائم دون انقطاع، وكانت الزيارات تترى لعجائب مصر المختلفة: إلى الاهرامات والقناطر الخيرية والجامعة التي لم يسمح لفتياتها الصغار بحضور حفلتها، كما لم يظهرن في الاحتفال بملابسهن الرياضية، والجامع الأزهر ومحالج القطن في شجرة الكبرى ومستشفى المواساة في الإسكندرية. وكان البرنامج مرهقًا رغم محاولة مضيفيه توفير سبل الراحة. وقد ازدحمت الانطباعات في ذهنه بكثافة بحيث إن ذكرياته عن تفاصيل هذه الزيارة لابد أن اختلطت عليه بعد نهاية مراسم زيارته.

وقد يكون الملك فاروق قد اكتشف أن ضيفه صارمًا بعض الشيء أحيانًا. ويا له من فرق بين الرجلين! فالفرعون الشاب حاكم أقدم مملكة على وجه الأرض كان شابًا واثقًا من المستقبل إذ إن مملكته وتحت قيادته ستكسر قيدها وتصبح حرة كما كانت في العصور السابقة. وكان أسد الصحراء المسن بسبب جروح قديمة والمتعب من مهام السلطة الطويلة، كان صامتًا ولا يميل إلى الحديث كثيراً، يجيل الفكر وهو ينظر إلى مستقبل معتم قد خبا رونقه الذي نعم به منذ سنين طويلة. كما كان الرجل مدركًا للإنجاز العظيم والرسالة التي حققها، ولكنه مصاب بالرهبة والخشية بسبب جلال أرض احبتها الطبيعة بخيراتها التي احتضنها ورعاها الإنسان. وعاد ابن سعود لبلاده وهو ممتلئ بالعرفان لما لقيه من ترحاب في مصر ليستجم في بلاطه البسيط والمريح.

وحتى هناك لم يكن ليهدأ له بال، فنهاية الحرب لم تجلب الراحة لشعوب العالم، كما أن الشرق الأوسط نفسه كان حافلاً بالكثير من المشاكل المثيرة لقلق الحكومات؛ فالجامعة العربية كالأمم المتحدة لم تتوان في عكس الخلافات

بين أعضائها. وقد أدت هذه الخلافات إلى الفشل في حرب فلسطين، ومنذ إنشاء الجامعة العربية في مارس ١٩٤٥م تبنى ابن سعود الموقف العام المنادي بترك كافة الأمور المتعلقة بمصلحة العرب لهذا الجهاز، والذي كان مستعداً للموافقة على قراراته. ولكن عندما تأهلت الأردن لعضوية الجامعة العربية بعد عامين، انجذب ابن سعود نحو مصر التي كانت تقود حركة مضادة لمشروعات "الهلال الخصيب" و"سوريا الكبرى" التي تبناها ورعاها الملك عبدالله بمساندة العراق. ولم تكن لبنان تتعاطف مع هذه المشروعات خشية خطورتها على استقلالها في حين أن سوريا كانت بالطبع بمثابة المخلب التي تسعى كل من الدول المتنافسة للحصول عليه. وكان الملك عبدالله يحظى بتأييد من سوريا بسبب الدعاية التي مولتها بريطانيا. وكان هناك ثمة ظن أن اتجاهه لتولي عرش سوريا يجد تأييداً إسرائيلياً مقابل بعض الترتيبات في فلسطين نفسها، وكان أن تمخضت أولاها في احتلال إسرائيل المنطقة التي يلتقي عندها نهرا اليرموك والأردن. وقد قيل إن ذلك قد تم بالاتفاق مع الملك عبدالله دون علم حكومته التي هددت بشن الحرب، واقتنعت أخيراً برفع استنكار ضعيف للأمم المتحدة.

والحال كذلك، لم تكن فكرة قيام «سوريا الكبرى» تشكل خطورة طالما كان شكري القوتلي هو رئيس الجمهورية السورية، ولكنه وبعد أن حصل على فترة رئاسة ثانية بدأ الموقف يتغير. وقد كانت الرياض تراقب الثورات الثلاث التي حدثت عام ١٩٤٩م بمشاعر مختلطة حسبما كانت تعكس هذه الثورات من تعاطف أو كره لفكرة "سوريا الكبرى" تحت التاج الهاشمي.

ولكن يبدو الآن أن الموقف في سوريا قد استقر إلى حد ما، ومن المهم ملاحظة أن اسمي ملكي مصر والسعودية لم يظهرا على قائمة أسماء حكام وحكومات الدول التي بعثت ببرقيات تهنئة إلى السيد هاشم الأتاسي بمناسبة انتخابه رئيسًا للجمهورية. وكانت الحجة هي ضرورة ممارسة قدر من الروية والتعبير قبل الاعتراف بالحكومات التي تخلف بعضها البعض بتلك السرعة المربكة. وكان الاستنتاج الحتمي هو أن الموقف في سوريا الآن بدأ في خلق نوع من الحذر واليأس في كل من القاهرة والرياض[1].

إن خطط الملك عبدالله وتصرفاته السقيمة وما صاحبها من توفيق وفشل إنما هي أعراض لمرض أقعد العرب قرونًا عدة، وكان من غير المحتمل وجود علاج لهذا المرض إبان فترة حياة زعمائهم الحاليين الذين أمضوا فترة ما بين الحربين العالميتين في خلافات وشقاق بينهم، في حين أن أصدقاءهم انشغلوا بهزيمة أعدائهم. وقد نقلوا خلافاتهم إلى الفترة التي تفصل ما بين الحرب العالمية الثانية والأخرى الثالثة التي بدأت سحبها العاصفة تتجمع في كافة أرجاء العالم. وهنا أيضًا فإن العدو المشترك واضح بحيث لا يمكن عدم تحديده، وربما كان الخطر أكبر من ذي قبل. ورغم ذلك فإن مشروع الحلف العربي الأمني الذي ينظر فيه بعض أعضاء الجامعة العربية في تقليد للأحلاف الدفاعية الغربية ثبت أنه فاشل بسبب الالتزامات السابقة لكل من الأردن والعراق، والتي لا تتمشى مع أفكار مصر والمملكة العربية السعودية.

---

(١) منذ ذلك الوقت سارت العلاقات بين المملكة العربية السعودية وسوريا بصورة مرضية ومستقرة. (المؤلف)

وبالإضافة إلى مخاوفهم المعلنة وغير المبررة من عدوان إسرائيلي على أراضيهم في المستقبل، فإن جميع العرب يدركون أن التهديد الرئيس لأمنهم كامن وراء "الستار الحديدي". ويطلقون على هذا التهديد "الشيوعية" ربما لتبرير الدعوة إلى الجهاد رغم أنهم يدركون في قرارة نفوسهم أو سيدركون إذا ما فكروا بدلاً من الانقياد وراء الدعاية الليبرالية التي تطلقها الجهات صاحبة المصلحة، إن عدوهم الحقيقي القديم لا يعدو أن يكون سوى الاستعمار في رداء ذئب سافر. وأما فيما يتعلق بابن سعود فإنه من العسير تحليل رد فعله المعقد تجاه الموقف العالمي الراهن، فمن المؤكد أنه يمقت ولا يعتقد في انتصار روسيا في حالة نشوب حرب أخرى، ورغم ذلك فهو محتار وساخط على سياسة الدول الغربية الملتوية، ثم لتعثر هذه الدول وتباطئها في معالجة المشكلة التي تواجهها. فلماذا لا يهاجمون العدو وهم يمتلكون القنبلة الذرية قبل أن يمتلكها العدو أيضًا؟ هكذا كان يتساءل وكان ابن سعود يصف بالغباء فكرة الاستياء تجاه استخدام مثل هذا السلاح. فكل وسيلة تستخدم من أجل الحب والحرب عادلة، وفي النهاية فإن هدف الجانبين هو تحقيق الانتصار، وكان ينفي بشدة رغبته في أن يرى حربًا عالمية أخرى أثناء حياته؛ ولكنه كان في بعض الأحيان يستنكر بشدة أسلوب الإدانة واللين؛ فالمملكة العربية السعودية خرجت من الحربين الأوليتين بالكثير مما يجعلها لا تأبه بنشوب حرب أخرى تؤدي فيها مرة أخرى دور المتفرج المعجب بمهارات الآخرين الحربية، ربما ناسية أن هذه المرة لها دور حيوي في اللعبة التي ربما تجلب الصراع المضني إلى جوارها. فالرجل الذي أضفى السلام على الجزيرة

العربية يعد أن الصراع والكفاح هو قدر بني البشر. فهو يخشى من أنه إذا تأخرت القوة الجبارة في إنجاز العمل الجيد فإنه قد لا يتمكن من مشاهدة المعركة الفاصلة الكبرى، فهو دائم التأمل والقلق تجاه مستجدات العصر من زلازل وفيضانات وتقليل البعد الزمني من سنوات إلى أيام أو ساعات، وكيف أن صوت الإنسان يقطع المسافات بتلك السرعة الفائقة؛ والرذيلة أصبحت تتدثر برداء الفضيلة وخاصة في البلدان الشيوعية، إذ كانت لديه قناعة أن الرجل أصبح عادة يضاجع أمه أو أخته، وضوء الفضيلة بدأ يخبو حتى في الجزيرة العربية ذاتها، وأن القزمين يأجوج ومأجوج بدأ في الظهور من كهفيهما في الشرق البعيد ليعلنا قدوم المسيح الدجال، حقًا إن قيام الساعة ليس ببعيد. وكثيراً ما ردد الملك القول "إنني كثيراً ما رغبت في قيام الساعة لتريح العالم من هذه المشاكل والاضطرابات". وبمقياس التعاليم الإسلامية فإن التعبير عن مثل هذه الرغبة غير مناسب لأنها تقترب من عدم التدين كما كان يردد شقيق الملك عبدالله مضيفًا أن هناك حديثًا للرسول الكريم يقول: إن قيام الساعة لن يحدث حتى تتحول جزيرة العرب إلى مروج وأنهار. ومن الواضح أن هناك وقتًا كافيًا أمام البشرية، في حين أن الربط بين كوريا الشمالية ويأجوج ومأجوج غير مؤكد، وعلى كل حال فإن ابن سعود ليس فريداً بين أولئك الذين يرغبون في قيام الساعة، فليحيا الملك ولتحيا أعماله من بعده!